الباب الرابع
المقارنة الطبيعية
الفصل الأول
الطبيعة الاجتماعية

١. الطبيعة الاجتماعية في الأمثال القرآنية

٢. الطبيعة الاجتماعية في الأمثال الأخرى

٥. المقارنة بينهما
الطبيعة الاجتماعية

الطبيعة في الأمثال

إن الأمثال لها قيمة أدبية واجتماعية، فإذا درس الباحث عن الأمثال، قراءة كانت أو غير قرآنية، وجد أنها تعتمد على طبائع الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية، وعلى طبائع الظواهر الكونية، التي كانت - ولا تزال تكون - محيطة بالمجتمع البشري في مختلف الأزمنة والبيئات، بيد أنها طريقة من أبلغ طرق التعبير اللغوي، و أرفعها شأنًا، و أعلاها شأنًا وتأثيرًا، لأن الراد من التمثيل والتشبيه لا يتم إلا بهذه الطريقة، إذ التمثيل لا يأتي بفائدة تامة إلا إذا كان المشبه به ملمسًا و مجزيًا عند القارئ أو السامع، و مسلمًا به. فسأري، و نحن ندرس بعض الأمثال، كيف حفلت بالطبيعة الاجتماعية والطبيعة الفنية الأدبية، حيث يمكننا أن نقارن بين الأمثال القرآنية، و الأمثال الأخرى على حسب الطبيعة.
6 الطبيعة الاجتماعية في الأمثال القرآنية:

إذاً الأمثال القرآنية، كثيرًا ما تعالج الطبيعة الاجتماعية، لأن القرآن ينظر إلى الإنسان من حيث أنه عنصر من عناصر الاجتماع، ويبحث عن حقوق الاجتماع ظاهرًا وباطنًا. فكان مما جاء على نحو ذلك، قوله تعالى:

"أو من كان ميتًا فأحياءً وجعلنًا له نورًا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات لنفس بخارج منها ۖ كذلك جميلًا في كل قرية أكبر مجريمًا ليبكي ويبكي فيهما ۖ وما يبكيون إلا بأنفسهم وما يشمرؤون"(1)

هذا مثل يشرح حقيقة من حقوق الاجتماع، فيقرر بين من يستجيب للمصالحين، ويعمل القول، فيتبع أحسنها، حتى يصبح عضوًا صالحاً في المجتمع، ويبقى عاكناً على ضلاله؟ فإن الأول هو الغالب في الحياة الدنيا والمستحق للخلافة فيها، والثاني هو المغلوب ومسلوب الخلافة. وهو أن القرآن الكريم ينظر إلى الحياة الدنيا; أنها ميدهان عمل وحسب للحياة الآخرة. وهكذا ينظر إلى الإنسان: إنه خليفة الله في الأرض(1)، وله فضل وكرم عن جميع الخلق(1).

ومن ثم، رأينا القرآن الكريم يقدر للإنسان العمل بثلاثة أشكاله: عمل ديني، وعمل اجتماعي، وعمل كوني(2)، فالذين قاما بهذا العمل بجميع أشكاله، استخلفهم الله تعالى في الأرض، وهم الغالبون الفائزون. والذين بقوا غير عاملين، سلب الله عز وجل منهم الخلافة، وهم المغلوبون المهلكون، كما قال الله تعالى:

"وعلل الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كمن قبلهم وليجعلن لهم أعزهم دينًا فليكتبون لهن التوحيد من كفر بعد ذلك فانقلبهم فئاً من الفئات(3) ۖ Мы وحنا ينادل الله العزيز قومًا دون قوم لينظر كيف يعملون(4)، مع أنه تعالى:

"لا يعير ما بقوهم حتى يغيروا ما يأتينهم(5)"(1)

وقد جعل الإسلام بهذا التفتيح ثلاثة أطوار(1)
1 - نقل النماذج البشرية التي يجري تغييرها ما يتناسبها من حالة الغياب الاجتماعي، الذي يبقى قدراتها العقلية وإراداتها النفسية أسرة لصانع من الأشخاص ووثني الأشياء، إلى حالة الحضور، الذي يجعلها تستشرر قيمة الإيمان وأفكار الأعمال الصالحة.

2 - رفع درجة الحضور، حتى تبلغ قدراتها العقلية درجة الحريّة في اختيارها.

3 - رفع كل من درجتي الوعي والحرية، حتى تبلغ درجة القدرة والقوة على تحويل المدركات العقلية الصائبة، والإدارة المفصلة، إلى أعمال صالحة صلبة.

فن قبط هذه الأطروحات فقد أعطي عقله الذي يميز بين الحق والباطل. ومن لم يطمها فقد أثاثه، فهكذا جاء هذا المثل القرآني يْسِي عمليات التغيير المشتركة إليها، بحياة، بعد الموت، قائلًا:

(أو من كان ميتًا فأحياء منه وجعلنا له نورًا... يَعْمَونُونَ).\(^{(1)}\)

إذن المارد من الإحياء الذي يوجه المثل القرآني إليه هو إحياء عقلي - إرادي، هو الضر الأول، ثم جعل في قلب النور الذي يبلغه إلى درجة الوعي والحرية، وهو الضر الثاني. ثم يكون من ثمرات ذلك، حسن المشي في الناس، وحسن التمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، وحسن التعامل معها كلها. وهو الضر الثالث. وله أن أصبح قابلًا للاستخلاف في الأرض.

وفي المقابل بُلْغت المثل أنظارنا إلى السياسات المعاكسة، التي يُديرها أكابر المجربين في كل مجتمع، الذين يمكرون، أي يقيمون سياساتهم على أساس الهبوط بالأتباع المُدَجَّّبين في الاتجاه الماكس للأطوار الثلاثة المذكورة، حتى تنتهي بهم إلى حالة إماتة الإنسانية، أي إماتة العقول والإرادات، وسجنة في غياب الخيرات و主旨 وأهواء الصرافات والشهوات الجسدية، إلى أن تؤول حياتهم إلى ظلماً الأبد، وسوء الأعمال، التي يُزَيّنها لهم سحرة الفكر والنفس، فلا يستطيعون منها خروجًا، فاستغرقوا في العبادة. واستمروا في الطغيان، حتى نزل بهم العقاب من رب السموات والأرض.\(^{(1)}\)

هكذا قد جاءت في القرآن الكريم أمثال كثيرة، التي تعالج الطبقات الاجتماعية وتشرح حقائق المجتمع،\(^{(1)}\) كقوله تعالى:

حقائق المجتمع،\(^{(1)}\) كقوله تعالى:
الطبيعة الاجتماعية في الأمثال الأخرى:

و أما الأمثال الأخرى فلها أيضًا قيمة اجتماعية، فمن أمن النظر فيها وجدوها حافلةً

بأخلاق العرب الاجتماعية، و نزاعاتهم، و عقباتهم من حيث أنهم أبناء المجتمع، و في

الحقيقة أنها تطلعنا على نظرة – حينذاك – إلى الحياة النزدية والاجتماعية، كقولهم:

أقوى من أرامل المقوينين(1)

فهذا المثل يخبرنا عن حالة من حالات الاجتماع الجاهل، فهو دال على جودهم و

كرامتهم، و فيه تشبه رجل مقر – على وجه البالغة مدها – أرامل المقوين، و الأرامل جمع

رق، و هو بقية الروح(17)، والقوين جمع القوى، و هو الذي صار في القواء، والقوى: الأرض

السفر، ثم سمي كل قبر موقياً(18). و المراد بالأرامل هنائ، حاتم الطائل(19) و كعب بن ماما

الأيادي(20)، و هرم بن سنان المري(21)، كما نقل الزمخشري(22)، إجماع العلماء على ذلك(23)، ثم

قال: "و إنهم لنا لقيوا بهذا اللعب لأنهم كانوا يحيون الهلال بوجههم، و يطمرون من نفد

رده(24).

و هذا الجود، والكرامة، والصدق، و ما إلى ذلك من الأخلاق الكريمة، فكلها من

واجبات اجتماعية، إذ كان مجتمعهم كثيرًا ما يتعثر لفترات من الجدب و القحط، بسبب قلة

الأمطار، وخصوصاً في صياغة المهنة الكريمة، لكون الصحراء العربية مترامية الأطراف، خافية العالم، تصب معها الحياة و
ففسر، حيث تصبح تلك الأخلاق - آنذاك - ضرورة اجتماعية لا بد من أنها. ومن هنا، كان الجود
و ما يشبهه ممدوحاً - عندهم - في جميع الأحوال. كما رأينا هذا المثل المذكور وما يميله،
يحدث الناس على الإيثار، و يرغب في الواسعة بالمال والعمل السلم، كما تفوق بهذه الخليقة
كثير منهم، مثل حاتم الطائر وغيره، و من ناحية أخرى، رأيناهم يذونون البخل والبخلاء، و
من لا يقوم بذلك الواجبات الاجتماعية، حيث قالوا في أمثالهم:
"شر ما أجازك إلى مَحَةٍ عَقوب"(1).
و مثل ما ذكرنا، كنتم لهم أمثال غير قليلة، التي تعالج الطبيعة الاجتماعية، ومنها(1):

1) "من خَفَر مَفَوَّة وقع فيها".
2) "إلى آكل لحم أخى ولا أذعه لأكل".
3) "هل تَنْتَج الناقة إلا للذي يحقته لى".
4) "من لا يُذَد عن حَوْضه يُهَذُم".
5) "الرآ يَرُجِّر لا مَحَال".
6) "الحلب مُطَبِّق الجَهُول".
7) "بمث جارية قَلْبَن الزانية".
8) "الفاح يُحَيى شَوَل مَعْقولا".
9) "المحَل من تَعْقَفُ الرَّم".
10) "أنصر أَخاك ظَالَّ أو مَظْلُوم".

فهذه الأمثال ظاهر معناها فيما نحن بصدده، و يكفي أن ندرس هذا المثل الأخير "أنصر
أخاك ظالَّ أو مَظْلُوم" و نقيس عليه غيره مما يشبهه.

فهذا المثل القائل: "أنصر أَخاك......." يخبرنا عن حالة أخرى من حالات اجتماعهم.
و ذلك أنهم يرون الحياة ميدان جَلَدٍ، و أن الحق فيها للقوة و السيطرة(1)؛ و من هنا، قد
فشا بينهم ظلم بجميع صوره، فالقوي قد يعاقب ضعيف بدون ذنب(2)؛ كما قد يعاقب من
هو أحق بالإحسان إليه(3)؛ و هكذا كان بعضهم يغيرون على بعضهم، كما كان بعضهم
يعتدون بقتل الناس مُجَاهِرة، و هم الذين يعرفهم فَتاً و إرهابيين(4).
و هناك قد من الناس، ولا سيما المظلومون الحاجة الملحة إلى النصرة، فيلجأون إلى من ينصرونهم من جار، وأسرة، وعشيره، وقبيلة، فحتى. وكل هذا يتضمن مجتمعهم الذي كانوا يعيشون فيه دون حراسة من قانون أو حاكم. فأن النصرة إذا واجبة اجتماعية قبطية، يدعو إليها تنافع البقاء والحفاظ على الحياة والعرض، والأخذ بالثأر، والإخلاص للآمة لله أو القبيلة، ولو كانت النصرة على الإنسان والعدوان، وهذه هي وثبة جاهزية ونزعة بدوية، التي لا تعرف أن تحتطى الحこれまで، بل تعرف شيئًا واحدًا، وهو نصرة الأخ - أو من يقوم مقامه - ظالماً كان أو مظلومًا.

المقارنة بينهما

و على أية حال، بعد هذا و ذاك، قد علمنا أن للأمثال القرآنية من الطبع الاجتماعي ما يماثله - على الشكل العام - في الأمثال الأخرى، غير أن لكل واحد منها من الخصائص التي تميز أحدهما عن الآخر.

و لعل من أبرز ما يلغت النظر في الأمثال القرآنية التي تشرح حقيقة من حقوق الاجتما، أنها تنبأ لكل ذوق من الأذواق على اختلاف الأرثمة. فلا ترفض الأذواق المتحضرات كما لم ترفض الأذواق التي كانت وقت نزولها، من حين أن نجد بعض الأمثال الأخرى، لا تروق بمقاييس الأذواق المتحضرات، وذلك أن كثيرًا من عناصر الطبيعة الاجتماعية - فيها - يقترب إلى حذر، وتهذيب، فمن الناحية الاجتماعية أو الخفية، قد ترفض أذواقنا هذه العناصر لما فيها من إفصاح أو خشونة، كما رأينا آنفاً في قولهم: "يعمل جارية فلتنزز الزانية" و فيما يماثله.

وهكذا نجد الأمثال القرآنية، أنها تنظر إلى الإنسان من حيث أن الإنسان - هو عنصر من عناصر الاجتماع - فتبت في الحياة الواقعة والثابتة منها، حيث استشهدت أفكارها من الحقوق الدينية، و الحقوق الموارثية، و من التعامل الدينية والدنيوية، فهدها واسع من الأرض إلى السماء، ومن الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، في حين نجد بعض الأمثال الأخرى
تُبيِّن صريحةً، أن أفضل المعروف ما كان للقوم والعشيرة، وهو من نزاعات اجتماعهم القبلية الجاهلية، التي لا تعرف أن تبسط ذراعها للإنسان بصفة كونه إنسانًا، بل تبقى في نطاق الحياة المادية والعادية، فلا تستمد أفكارها من الحقائق الموارثية والتعاليم الدينية، فهمها لا يتجاوز الأرض، بل هو من الأرض إلى الأرض. كما رأينا في قولهم: "من لا يبذل عن خوضه يهدهم" و"انصر أخاك ظالماً أو مظلومًا".

ثم نجد الأمثال القرآنية، أنها تبحث عن حقوق الاجتماع، ظاهرها وباطنها، فتعلنها وتحللها، من حين نجد بعض الأمثال الأخرى، أنها كانت سطحية وبديئة عن التعليم والتحليل، كما رأينا في قولهم: "أملح من تعقيد الرحم" فيما يمثله، و Idle أصاب الشيخ أحمد أمين 33 حين قال في نظرية المثل الجاهلي وعلاقته: "هو النظر الجزء الموضعي لا الكل الشامل، لأن المثل لا يستدعى إحاطة بالعالم وشموله، ولا يتطلب خِياًً واسعًا، ولا بحثًا عميقةً، إنما يتطلب تجربة محلية في شأن من شؤون الحياة" 33، ومن ثم، قد انتهى أكثر الباحثين إلى أن الإسلام رسم للحياة المثل الأعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية، فإن المثل القرآني لا يشبه المثل الجاهلي، بل كثيرًا ما يتناقضان، فالشجاعة الشخصية، والشجاعة التي لا حدد لها، والآخر إلى حد الإسراف، والإخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والأخد بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قرب له أو على قبيلته، يقول أو فعل، والفخر بالنجدة، والمشجاعة عليه القوم، وفي خاتم الخمر، والتمتع بالشراب حوله الدامى و القيان، فهذين ما يشبهوا كانت من أصول الفضائل الاجتماعية عند العرب الوثنين في الجاهلية، أما في الإسلام فثقل الخضوع لله تعالى والانقياد لأمره، والصبر، وإخضع منافق الشخص ومنافع قبله لأوامر الدين والتقوى والصلاة، وعدم التفاخر والتكاثر، وتجنب الكبير وتحرج الخبية، والصبر بين الناس، وغيرها من أصول الفضائل الاجتماعية، وذَلَك هو المثل الأعلى في الحياة الإنسانية 33. كما أكد القرآن نفسه بقوله تعالى:

(وِسَلِّمُوا لِلَّهِ الْبُنَيْنِ سَبْحَانَهُ وَلَهُمُ مَا يُشْهَدُونَ وَإِذَا بَشِّرُوا أُحِدَّهُمْ بِالْأَنْثَى ظَلَّ وَجَهَسُوهُ مُسْتَنَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ- يَتَوَارَى مِنَ الْقُوَّمِ مَن سَوْىَ مَا بَشَّرُ بِهِ أَيْمَاسُكَةً عَلَى هَبُونٍ أَمْ يَدْسَهُ فِي)
الناراب 4ً لاَّ سَاءَ مَا يَحْكَمُونَ - اللَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلَ السُّوءَ وَ اللَّهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىُ َوَ هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(42)

و ذلك أن الإسلام قد هدم الوحدة القبلية، والوحدة الجنسية، وأعلن أن لا تفاعل بين أفراد المجتمع البشري إلا بطاعة الله عز وجل وتنفيذ أمره، فعلاقة الدين أقوى وأثبتت من علاقة الدم والنسب والحسب وما إلى ذلك، كما أخبرنا القرآن بشيء تعال:

يا أيها الناس إنما خلقتم من ذكر و أنثى و جعل لكم شعوبا و قبائل و فارقوا ف إن أكرمكم عند الله أتقنتم إن الله عليم خبيرًا(43)

و أخبرنا الإمام مسلم (44) بقوله عليه السلام: "من قاتل تحت رايته عميسي يغضب عصبيه أو يدعو إلى عصبيه أو ينصر عصبيه فقد قتل قتلة جاهلية(45)" و يقول عليه السلام: "لا طاعة في مصيبة الله و إنما الطاعة في المعروف(46)."